الأمانة، أساس الحياة في المجتمع الإسلامي

يأمرنا ربنا جل وعلا بأداء الأمانات إلى أهلها حين قال في سورة النساء (الآية 58) ﴿**إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا** حكمتم **بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعّما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا**﴾. وفي الحديث الذي رواه ابن جرير وأخرجه الشيخان: "**أدّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك**". وهو يعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان من حقوق الله عز وجل على عباده من الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد بالنفس والمال في سبيل الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإصلاح ذات البين والنصيحة وحسن المعاملة مع خلق الله والكفارات والنذور وغير ذلك، مما هو مؤتمن عليه لا يطلع عليه العباد، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض، كالودائع وغير ذلك مما يأتمنون به من غير إطلاع بينة على ذلك فأمر الله عز وجل بأدائها، فمن لم يفعل ذلك في الدنيا أخذ منه ذلك يوم القيامة كما ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لتؤدن الحقوق إلى أهلها حتى يقتص للشاة الجماء من القرناء».

هذه هي تكاليف الجماعة المسلمة وهذا هو خلقها: أداء الأمانات إلى أهلها، والحكم بين الناس بالعدل على منهج الله وتعليمه. والأمانات تبدأ من الأمانة الكبرى.. الأمانة التي ناط الله بها فطرة الإنسان، والتي أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان، هذا الذي أراده سبحانه وتعالى أن يكون له في الأرض خليفة ليصلح ويزرع الخير ويزيل كل فساد.

هي أمانة الهداية والمعرفة والإيمان بالله عن قصد وإرادة وجهد واتجاه. فهذه أمانة الفطرة الإنسانية خاصة...وهذه أمانة حملها وعليه أن يؤديها أول ما يؤدي من الأمانات.. ومن هذه الأمانة الكبرى، تنبثق سائر الأمانات: أمانة الشهادة لهذا الدين في النفس أولا بمجاهدة النفس حتى تكون ترجمة له في شعورها وسلوكها ويرى الناس صورة الإيمان في هذه النفس. فتكون هذه الشهادة حينئذ دعوة الناس إليه وبيان فضله ومزيته بعدما تكمل هذه الفضيلة في نفس الداعية. ثم الشهادة لهذا الدين بمحاولة إقراره في الأرض منهجا للجماعة المؤمنة، ومنهجا للبشرية جميعا.

ومن هذه الأمانات الداخلة في ثنايا ما سبق أمانة التعامل مع الناس، ورد أماناتهم إليهم: أمانة المعاملات والودائع المادية. وأمانة النصيحة للراعي وللرعية وأمانة القيام على الأطفال الناشئة، وأمانة المحافظة على حرمات الجماعة وأموالها وثغراتها.. فأمانة الإمام العدل، وأمانة الغني السخاء والإنفاق، وأمانة العالم الجهاد بالقلم والفكر والسيف عند الحاجة. فإذا حصل العدل من الأمراء والسخاء من الأغنياء والعفة من الفقراء والشجاعة من العلماء، فظهر الأرض خير لنا من بطنها وإلا فالحياة جحيم وفتن والأمة في عذاب واضطراب.

وأصحاب الخلق الكريم والطبع السليم والشعور القويم هم الذين يحزنون حينما يحسون أنهم قد قصروا في شيء من حقوق الأمانة ولو عن غير قصد، وحينئذ تتمزق قلوبهم أسفا وحسرة على ما فرط منهم. ومن أمثلة هؤلاء، الصحابي الجليل أبو لبابة رضي الله عنه. لقد حدث في أثناء غزوة الأحزاب أن غدر يهود بني قريظة بالرسول والمسلمين، ونقضوا العهد الذي كان بينهم وبين النبي، وانضموا إلى المشركين في وقت شديد عصيب، وشاءت عناية الله أن تحقق حملة الأحزاب، وتوجه الرسول بعدها إلى تأديب الغدرة الفجرة من بني قريظة، وتمكن منهم بعد حصار طال وامتد، وطلب هؤلاء من الرسول أن يبعث إليهم بالصحابي أبي لبابة، وكان حليفا لهم في الجاهلية، وكان له بينهم مال وعقار، فحسبوا أنه سيكون سبب تخفيف عنهم، ولما وصلهم أبو لبابة أخذوا يسألونه: أيسلمون وينزلون على حكم النبي؟ فقال لهم نعم. ثم بدرت منه بادرة غير مقصودة، فأشار بيده إلى حلقه إشارة يفهم منها أن مصيرهم هو القتل، ولعله كان قد عرف ذلك من الرسول صلى الله عليه وسلم أو أستنتجه، وهو قصاص عادل من غير شك.

وما كاد أبو لبابة رضي الله عنه يأتي بهذه الإشارة حتى تنبه لنفسه في خوف وجزع وأحس وكأنه خان أمانة الله ورسوله في هذه الإشارة، لأنه كشف شيئا كان يجب عليه ولو في اعتقاده أن يخفيه، فعصره الألم والحزن وقال: "فوا الله ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفت أني خنت الله ورسوله". فعاد مسرعا إلى المدينة حتى دخل المسجد والدموع تسيل على خديه، فربط نفسه في أحد أعمدته بسلسلة ثقيلة وقال: " والله لا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت أو يتوب الله على مما صنعت". وأخذ على نفسه العهد الوثيق ألا يدخل أرض بني قريظة ما دام حيا، مع أنه قد كان له فيها مال وعقار.

وبلغت القصة مسمع النبي صلى الله عليه وسلم فقال: « **لو جاءني لاستغفرت له وأما إذ فعل ما فعل فما أنا بالذي أطلقه حتى يتوب الله عليه** ». وجاء الوحي من عند الله عز وجل مؤدبا ومعلما فقال: ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون**﴾(الأنفال / 27) وظل أبو لبابة مربوطا في عمود المسجد عشرين يوما، لا تفك قيوده إلا لأداء الصلاة ثم يعود إلى القيد من جديد حتى نزلت آية التوبة: ﴿**وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وأخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم**﴾. ومحيت الهفوة من سجل أبي لبابة بفضل الله ورحمته وفك الرسول صلى الله عليه وسلم قيده بنفسه ليكون ذلك تأكيدا لغفران الله وعفوه... وواصل رضي الله عنه حياته مجاهدا مستقيما على الطريق، وفيا بعهده لا يخون ولا يهون. وهذه كلمة لموقظ الشرق السيد جمال الدين الأفغاني يصور بها أهمية الأمانة وضرورتها للأمم. يقول فيها: "من المعلوم الجلي أن بقاء النوع الإنساني قائم بالمعاملات والمفاوضات في منافع الأعمال، وروح المعاملة والمعاوضة إنما هي الأمانة، فان فسدت الأمانة بين المتعاملين بطلت صِلات المعاملة، وانبترت جبال المعاوضة فاختل نظام المعيشة وأفضى ذلك بنوع الإنسان إلى الفناء العاجل".

"ثم من البيّن أن الأمم في رفاهتها، والشعوب في راحتها وانتظام أمر معيشتها، محتاجة إلى الحكومة بأي أنواعها: إما جمهورية أو ملكية مشروطة أو ملكية مقيدة. والحكومة في أي صوَرها لا تقوم إلا برجال يلون ضروبا من الأعمال، فمنهم حراس على حدود المملكة يحمونها من عدوان الأجانب عليها ويدافعون الوالج في ثغورها، وحفظة في داخل البلاد يأخذون على أيدي السفهاء ممن يهتك ستر الحياء، ويميل إلى الاعتداء من فتك وسلب أو نحوهما، ومنهم حملة الشرع وعرفاء القانون، يجلسون على منصات الأحكام لفصل الخصومات والحكم في المنازعات. ومنهم أهل جباية الأموال، يحصلون من الرعايا ما فرضت عليهم الحكومة من خراج مع مراعاة قانونها في ذلك، ثم يستحفظون ما يحصلون في خزائن المملكة، وهي خزائن الرعايا في الحقيقة، وإن كانت مفاتيحها بأيدي خزنتها. ومنهم من يتولى صرف هذه الأموال في المنافع العامة للرعية، مع مراعاة الاقتصاد والحكمة، كإنشاء المدارس والمكاتب وتمهيد الطرق وبناء القناطر وإقامة الجسور وإعداد المستشفيات، ويؤدي أرزاق سائر العاملين في شؤون الحكومة من الحراس والحفظة وقضاة العدل وغيرهم حسبما عين لهم".

"وهذه الطبقات من رجال الحكومة، الواليين على أعمالها، إنما تؤدي كل طبقة منها عملها المنوط بها بحكم الأمانة، فإن خزيت أمانة أولئك الرجال وهم أركان الدولة سقط بناء السلطة وسلب الأمن، وراحت الراحة من بين الرعايا كافة وضاعت حقوق المحكومين وفشا فيهم القتل والتناهب، ووعرت طرق التجارة وتفتحت عليهم أبواب الفقر والفاقة، وخوَت خزائن الحكومة وعميت على الدولة سبل النجاح، فإن ضربها أمر سدت عليها نوافذ النجاة". "ولا ريب أن قوما يساسون بحكومة خائنة إما أن ينقرضوا بالفساد وإما أن يأخذهم جبروت أمة أجنبية عنهم، يسومونهم خسفا، ويستبدون فيهم عسفاء فيذوقون من مرارة العبودية ما هو أشد من مرارة الانقراض والزوال".

"ومن الظاهر أن استعلاء قوم على آخرين إنما يكون اتحاد آحاد العاملين والتئام بعضهم ببعض، حتى يكون كل منهم لبُنية قومه كالعضو للبدن، ولن يكون هذا الاتحاد حتى تكون الأمانة قد ملكت قيادهم وعست بالحكم أفرادهم. فقد كشف الحق أن الأمانة دعامة بقاء الإنسان ومستقر أساس الحكومات، وباسط ظلال الأمن والراحة ورافع أبنية العز والسلطان وروح العدالة وجسدُها، ولا يكون شيء من ذلك بدونها".

"وإليك الاختيار في فرض أمة عطلت نفوسها من حلية هذه الخلة الجليلة، فلا تجد فيها إلا آفات جائحة، ورزايا قاتلة وبلايا مهلكة، وفقرا معوزا، وذلا معجزا، ثم لا تلبث بعد هذا كله أن تبتلعها بلاليع العدم وتلتهمها أمهات اللِّهم". اهـ

اللهم هبنا فضيلة الأمانة وجنبنا رذيلة الخيانة فإنك الرؤوف الرحيم آمين.

"يسألونك ماذا ينفقون"

لقد وردت آيات كثيرة سابقة على هذا السؤال. فالإنفاق في مثل الظروف التي نشأ فيها الإسلام ضرورة لقيام الجماعة المسلمة في وجه تلك الصعاب والمشاق والحرب التي كانت تواجهها وتكتنفها، ثم ضرورة من ناحية أخرى: من ناحية التضامن والتكافل بين أفراد الجماعة وإزالة الفوارق الشعورية بحيث لا يحس أحد إلا أنه عضو في ذلك الجسد لا يحتجن دونه شيئا ولا يحتجز عنه شيئا وهو أمر له قيمته الكبرى في قيام الجماعة شعوريا إذا كان سد الحاجة له قيمته في قيامها عمليا. وهنا يسأل بعض المسلمين "ماذا ينفقون؟" وهو السؤال عن نوع ما ينفقون، فجاءهم الجواب يبين صفة

الإنفاق ويحدد كذلك أولى مصارفه وأقربها:﴿ **قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم**﴾ (البقرة/215). ولهذا التعبير إيحاءان: الأول أن الذي ينفق خير، خير للمعطي وخير للآخذ وخير للجماعة وخير في ذاته فهو عمل طيب وتقدمه طيبة. والإيحاء الثاني أن يتحرى المنفق أفضل ما عنده فينفق منه، وخير ما لديه فيشارك الآخرين فيه كما جاء في آية أخرى من سورة آل عمران:﴿ **لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون**﴾(92). فالإنفاق تطهير للقلب وتزكية للنفس ثم منفعة للآخرين وعون، وتحري الطيب والنزول عنه للآخرين هو الذي يحقق للقلب الطهارة وللنفس التزكية والإيثار معناه كريم.

وقد فقه المسلمون وقتها معنى التوجيه الإلهي وحرصوا على أن ينالوا البر وهو جماع الخير، بالنزول عما يحبون وببذل الطيب من المال سخية به نفوسهم في انتظار ما هو أكبر وأفضل. روى الإمام أحمد بإسناده عن أبي إسحاق بن عبد الله بن ابن طلحة قال سمع أنس بن مالك يقول: "كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالا وكان أحب أمواله "بيرحاء" وكانت مستقبلة المسجد وكان النبي صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب. قال أنس رضي الله عنه وعن الصحابة أجمعين: فلما نزلت: "لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون" قال أبو طلحة رضوان الله عليه: "يا رسول الله إن الله يقول :﴿**لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون**﴾ وإن أحب أموالي إلي بيرحاء وإنها صدقة لله أرجو بها برها وذخرها عن الله تعالى فضعها يا رسول الله حيث أراك الله "فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "بخ بخ. ذاك مال رابح، ذاك مال رابح وقد سمعت وأنا أرى أن تجعلها في الأقربين" فقال أبو طلحة: "افعل يا رسول الله "فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه".

وفي الصحيحين أن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: "يا رسول الله لم أصب مالا قط هو أنفس عندي من سهمي الذي هو بخيبر. فما تأمرني به؟" قال عليه الصلاة والسلام: "أحبس الأصل وسبل الثمرة". وعلى هذا الدرب سار الكثيرون منهم يلبون توجيه ربهم الذي هداهم إلى البر كله يوم هداهم إلى الإسلام ويتحررون بهذه التلبية من استرقاق المال ومن شح النفس ومن حب الذات، ويصعدون في هذا المتقى السامق الوضيء أحرارا خفافا طلقاء. أما طريق الإنفاق ومصرفه فيجيء بعد تقرير نوعه: ﴿**فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل**﴾. وهو يربط بين طوائف من الناس بعضهم تربطه بالمنفق رابطة العصب، وبعضهم رابطة الرحم، وبعضهم رابطة الرحمة،

وبعضهم رابطة الإنسانية الكبرى في إطار العقيدة المتين. ولقد علم الله سبحانه أن الإنسان يحب ذاته فأمره أولا بكفايتها قبل أن يأمره بالإنفاق على من سواها وأباح له الطيبات من الرزق وحثه على تمتيع ذاته بها في غير ترف ولا مخيلة لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله جميل يحب الجمال". فالدقة لا تبدأ إلا بعد الكفاية والرسول الكريم صلى الله عليه وسلم يقول في حديث أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: " خير الصدقة ما كان عن ظهر غني واليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول". وفي رواية لأبي داود أن سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: جاء رجل بمثل بيضة من ذهب فقال: يا رسول الله أصبت هذه من معدن فخذها فهي صدقة. ما املك غيرها... فاعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أتاه من قبل ركنه الأيمن فقال مثل ذلك فأعرض عنه فأتاه من قبل ركنه الأيسر فقال مثل ذلك فأعرض عنه ثم أتاه من خلفه فقال مثل ذلك فأخذها صلى الله عليه وسلم فحذفه بها فلو أصابته لأوجعته وقال: "يأتي أحدكم بما يملك فيقول: هذه صدقة ثم يقعد يتكفف الناس، خير الصدقة ما كان عن ظهر غني".

ولقد علم الله سبحانه أن الإنسان يحب أول ما يحب أفراد أسرته الأقربين: عياله ووالديه، فسار به خطوة في الإنفاق وراء ذاته إلى هؤلاء الذين يحبهم، ليعطيهم من ماله وهو راض، فيرضى ميله الفطري الذي لا ضير منه، بل فيه حكمة وخير، وفي الوقت ذاته يعول ويكفل ناسا هم أقرباؤه الأدنون، نعم ولكنهم فريق من الأمة إن لم يعطوا احتاجوا. وأخذهم من القريب أكرم لهم من أخذهم من البعيد، وفي الوقت ذاته إشاعة للحب والسلام في المحضن الأول، وتوثيق لروابط الأسرة التي شاء الله أن تكون اللبنة الأولى في بناء الإنسانية الكبير.

ولقد علم الله سبحانه أن الإنسان يمد حبه وحميته بعد ذلك إلى أهله كافة بدرجاتهم منه وصلتهم به، ولا ضير في هذا فهم أفراد من جسم الأمة وأعضاء في المجتمع فسار به خطوة أخرى في الإنفاق وراء أهله الأقربين تساير عواطفه وميوله الفطرية، وتقضي حاجة هؤلاء، وتقوى أواصر الأسرة البعيدة وتضمن وحدة قوية من وحدات الجماعة المسلمة مترابطة العرى وثيقة الصلات وعندما يفيض ما في يده عن هؤلاء وهؤلاء بعد ذاته فإن الإسلام يأخذ بيده ليتفق على طوائف من المجموع البشري، يثيرون بضعفهم أو حرج موقفهم عاطفة النخوة وعاطفة الرحمة وعاطفة المشاركة وفي أولهم اليتامى الصغار الضعاف ثم المساكين الذين لا يجدون ما ينفقون ولكنهم يسكتون فلا يسألون الناس كرامة وتجملا، ثم أبناء السبيل الذين قد يكون لهم مال ولكنهم انقطعوا عنه وحالت بينهم وبينه الحوائل،

وقد كانوا كثيرين في الجماعة المسلمة هاجروا من مكة تاركين وراءهم كل شيء، وهؤلاء جميعا أعضاء في المجتمع، والإسلام يقود الواجدين إلى الإنفاق عليهم، يقودهم بمشاعرهم الطيبة الطبيعية التي يستجيشها ويزكيها. فيبلغ إلى أهدافه كلها في هوادة ولين يبلغ أولا إلى تزكية نفوس المنفقين فقد أنفقت طيبة يما أعطت، راضية بما بذلت، متجهة إلى الله تعالى في غير ضيق ولا من ولا تبرم ويبلغ ثانيا إلى إعطاء هؤلاء المحتاجين وكفالتهم. ويبلغ ثالثا إلى حشد النفوس كلها متضامنة متكافلة في غير ما تضرر ولا تبرم، قيادة لطيفة مريحة بالغة ما تريد، محققة كل الخير بلا اعتساف ولا افتعال ولا تشديد، ثم يربط هذا كله بالأفق الأعلى فيستجيش في القلب صلته بالله فيما يعطى وفيما يفعل وفيما يضمر من نية ويصير كاملا بكمال الله فان عما سواه ظاهره مع الخلق وباطنه مع الحق.. فالله عليم به وعليم بباعثه وعليم بالنية المصاحبة له وهو إذن لا يضيع فهو في حساب الله الذي لا يضيع أجر المحسنين، وهذا هو المنهج التربوي الذي يضعه العليم الخبير ويقيم عليه النظام الذي يأخذ بيد الإنسان كما هو ويبدأ من حيث هو ثم ينتهي به إلى آماد وآفاق لا تصل إليها البشرية قط بغير هذه الوسيلة ولم تبلغ إليها قط إلا حين سارت على هذا المنهج، في هذا الطريق المستقيم...

نسألك اللهم أن تلهمنا شكر النعم وتجنبنا كل النقم يا رحيم ويا أكرم آمين

الإنسـان بالكيـف لا بالعـدد !!

يدعو القرآن الكريم إلى تجريد المشاعر والصلات في قلوب الجماعة المؤمنة، وتمحيصها لله ولدين الله، فيدعو إلى تخليصها من وشائج القربى والمصلحة واللذة، ويجمع كل لذائذ البشر وكل وشائج الحياة، فيضمها في كفة، ويضع حب الله ورسوله وحب الجهاد في سبيله في الكفة الأخرى ويدع للمسلمين للخيار.. قول عز وجل في سورة التوبة:﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء، إن استحبوا الكفر على الإيمان، ومن يتولهم منكم فأولئك هم الضالون.. قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها، ومساكين ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره، والله لا يهدي القوم الفاسقين**﴾**(التوبة /23-24)**

إن هذه العقيدة لا تحتمل لها في القلب شريكا، فإما تجرد لها، وإما انسلاخ منها وليس المطلوب أن ينقطع المسلم عن الأهل والعشيرة والزوج والولد والمال والعمل والمتاع واللذة ولا أن يترَهبن ويزهد

في طيبات الحياة.. كلا إنما تريد هذه العقيدة أن يخلص لها القلب، ويخلص لها الحب وأن تكون هي المسيطرة والحاكمة وهي المحركة والدافعة. فإذا تم لها هذا فلا حرج عندئذ أن يستمتع المسلم بكل طيبات الحياة على أن يكون مستعدا لنبذها كلها في اللحظة التي تتعارض مع مطالب العقيدة.

ومفرق الطريق هو أن تسيطر العقيدة أو يسيطر المتاع، وأن تكون الكلمة الأولى للعقيدة أو لعرض من أعراض هذه الأرض.. فإذا اطمأن المسلم إلى أن قلبه خالص لعقيدته فلا عليه بعد هذا أن يستمتع بالأبناء والاخوة وبالزوج والعشيرة، ولا عليه أن يتخذ الأموال والمتاجر والمساكن ولا عليه أن يستمتع بزينة الله والطيبات من الرزق في غير سرف ولا مخيلة بل إن المتاع بها حينئذ لمستحب، باعتبار لون من ألوان الشكر لله الذي أنعم بها ليتمتع بها عباده وهم يذكرون أنه الواحد الرزاق المنعم الوهاب.

وهذا التجرد لا يطالب به الفرد وحده، إنما تطالب به الجماعة المسلمة والدولة المسلمة. فما يجوز أن يكون هناك اعتبار لعلاقة أو مصلحة يرتفع على مقتضيات العقيدة في الله ومقتضيات الجهاد في سبيل الله. وما يكلف الله الفئة المؤمنة هذا التكليف إلا وهو يعلم أن فطرتها تطيقه، فالله لا يكلف نفسا إلا وسعها، وإنه لمن رحمة الله تعالى بعباده أن أودع فطرتهم هذه الطاقة العالية من التجرد والاحتمال، وأدع فيها الشعور بلذة علوية لذلك التجرد، لا تعدِلها لذائذ الأرض كلها، لذة الشعور بالاتصال بالله، ولذة الرجاء في رضوان الله، ولذة الاستعلاء على الضعف والهبوط، والخلاص من ثقلة اللحم والدم، والارتفاع إلى الأفق المشرق الوضيء. فإذا غلبتها ثقلة الأرض ففي التطلع إلى الأفق ما يجدد الرغبة الطامعة في الخلاص والفكاك.

والقرآن الكريم إذ يقص علينا وقعة حنين المباركة، يذكرنا أن الإنسان بالكيف لا بالعدد وأن التجرد لله وتوثيق الصلة به هي عدة النصر لمن أراد أن يحيى سعيداً أو يموت شهيداً.. فهي العدة التي لا تخذل أصحابها حين تخذلهم الكثرة في العدد والعتاد، وحين يخذلهم المال والاخوة والأولاد ... قال سبحانه: ﴿**لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بمار رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وانزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم** ﴾(**التوبة /25-27**).

ولقد كان نصر الله لقافلة النور الأولى في المواطن الكثيرة قريبا من ذاكرتهم لا يحتاج إلى أكثر من الإشارة. فأما وقعة حنين فكانت بعد فتح مكة المكرمة في شوال سنة ثمان من الهجرة كما جاء في كتب السيرة والتفسير. وذلك لما فرغ صلى الله عليه وسلم من فتح مكة المكرمة، وتمهدت أمورها واسلم عامة أهلها، وأطلقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبلغه أن هوازن جمعوا له ليقاتلوه وأن أميرهم مالك بن عوف النضري، ومعه ثقيف بكمالها، وبنو جشم وبنو سعد بن بكر وأوزاع من بني هلال، وهم قليل وناس من بني عمر بن عامر وعوف بن عامر وقد أقبلوا معهم النساء والولدان والشاء والنعم،1 وجاءوا بقضهم وقضيضهم (جميعهم)، فخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في جيشه الذي جاء معه للفتح وهو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب، ومعه الذين أسلموا من أهل مكة وهم الطلقاء في ألفين، فسار بهم إلى العدو، فالتقوا بواد بين مكة والطائف يقال له "حنين" فكانت فيه الواقعة في أول النهار في غلس الصبح. انحدروا في الوادي وقد كمنت فيه هوازن. فلما توجهوا لم يشعر المسلمون إلا بهم قد بادروهم، ورشقوا بالنبال، وأصلتوا السيوف، وحملوا حملة رجل واحد كما أمرهم ملكهم. فعند ذلك ولى المسلمون مدبرين كما قال عز وجل في محكم التنزيل وثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ وهو راكب بغلته الشهباء يسوقها إلى نحر العدو.

وعمه العباس أخذ بركابها الأيمن وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب أخذ بركابها الأيسر يثقلانها لئلا تسرع السير وهو ينوه باسمه عليه الصلاة والسلام، ويدعو المسلمين إلى الرجعة ويقول: " **إلي يا عباد الله، إلي أنا رسول الله** ". ويقول في تلك الحال: " **أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب** ". وثبت معه من أصحابه قريب من مائة ومنهم من قال ثمانون، ضمنهم أبو بكر وعمر والعباس وعلي والفضل بن عباس وأبو سفيان بن الحارث وأيمن بن أم أيمن وأسامة بن زيد وغيرهم رضوان الله عليهم أجمعين، ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم عمه العباس وكان جهير الصوت أن ينادي بأعلى صوته: " **يا أصحاب الشجرة** " يعني شجرة بيعة الرضوان التي بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار تحتها، ألا يفروا عنه، فجعل ينادي بهم: " يا أصحاب السمرة "، ويقول تارة " يا أصحاب سورة البقرة " فجعلوا يقولون: " يا لبيك يا لبيك وانعطف الناس فتراجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع لبس ذرعه ثم الحذر عنه وأرسله, ورجع بنفسه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما اجتمعت شرذمة منهم عند رسول الله

صلى الله عليه وسلم أمرهم الرسول الكريم أن يصدقوا الحملة وانهزم المشركون فأتبع المسلمون قفاءهم يقتلون ويأسرون، وما تراجع بقية الناس إلا والأسرى مجندلة بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

هذه هي المعركة التي اجتمع فيها المسلمين للمرة الأولى جيش عدته اثنا عشر ألفا فأعجبتهم كثرتهم وغفلوا بها عن سبب النصر الأول، فردهم الله بالهزيمة في أول المعركة إليه ثم نصرهم بالقلة المؤمنة التي تبتت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والتصقت به. إن معركة حنين التي يذكرها السياق هنا ليعرض نتائج الانشغال عن الله والاعتماد على قوة غير قوته لتكشف لنا عن حقيقة أخرى ضمنية، حقيقية القوى التي تعتمد عليها كل عقيدة. إن الكثرة العددية ليست بشيء إنما هي القلة العارفة المتصلة الثابتة المتجردة للعقيدة. وإن الكثرة لتكون أحيانا سببا في الهزيمة، لأن بعض الداخلين فيها التائهين في غمارها، ممن لم يدركوا حقيقة العقيدة التي ينساقون في تيارها، تتزلزل أقدامهم، وترتجف في ساعة الشدة، فيشيعون الاضطراب والهزيمة في الصفوف، فوق ما تخدع الكثرة أصحابها، فتجعلهم يتهاونون في توثيق صلتهم بالله، انشغالا بهذه الكثرة الظاهرة عن اليقظة لسر النصر في الحياة.

أليست هذه هي حالة أمتنا الإسلامية الآن ؟؟ ها هي الآن تستغيث بمن أذلوها بالأمس وجوعوها اليوم نتيجة غرورها بكثرتها وإعجابها بعدتها.. فالعبرة في الكيف لا في العدد وما اتعظت يوما بأصحاب حنين الذين انهزموا أول الأمر أمام عدوهم والرسول صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم وذلك عندما التفتوا إلى عدتهم وعددهم وانحرفوا قليلا عن القبلة التي أمروا أن لا يتوجهوا إلا إليها وألا يستمدوا العون إلا منها.. فلما رجعوا إليها خاضعين مخلصين انتصروا على من خالفهم والحمد لله رب العالمين.. يخطئ بعض المسلمين في بحثه عن طريق النصر على اليهود، ويخطئ في إيجاد حل للقضية الفلسطينية ويتساءل كثيرون عن طريق النصر وكيفية الوصول إليه؟

عندنا يقين جازم أخذناه، من تقريرات القرآن وحقائقه ومعالمه بشأن صراعنا مع اليهود، هذا اليقين يقوم على رفض ونبذ كل الحلول الجاهلية لهذا الصراع، والمقترحات الجاهلية لطريق النصر والخلاص وأن هذه الحلول والمقترحات لن نجني منها إلا مزيدا من الذل والهزيمة والضياع، وسوف تؤخر النصر وتطيل المعاناة والعذاب..

من الحلول الجاهلية المطروحة: الحل الإقليمي الذي يجعلها قضية الفلسطينيين أنفسهم ولا شأن للعرب أو المسلمين بهم، والحل القومي الذي يجعلها قضية قومية عربية، والحل الثوري الذي يجعلها امتدادا للإمبريالية والاستعمار والرأسمالية.. ومن هذه الحلول الحل السلمي الذي يقوم على تحطيم الحاجز النفسي بين العرب واليهود، وفتح باب المفاوضات المباشرة معهم، ومفاوضاتهم على أن ينسحبوا من جزء من فلسطين لتقام عليه دولة عربية فلسطينية علمانية ثم إنها حالة الحرب، والاعتراف لليهود بالسيادة على فلسطين، وإقامة علاقات دبلوماسية معهم ﴿ **أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون** ﴾(**المائدة / 50**).

يحرص المسؤولون على إبقاء الناس تعيش آمالا على تحقيق وعود منّوهم بها، وكلما فشلوا في وعد قدموا لهم وعدا آخر، ولا ترى الأمة من هذه الوعود سوى أوهام وأحلاما وخيالا وسرابا ﴿ **يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا** ﴾(**النساء/120**). ويجعل هؤلاء المسؤولون الأمة حقلا وميدانا للتجارب يجربون عليها الحل الفلاني ويطالبون بمدة للتجريب، فإن فشل فالتجربة للحل الفلاني، وهكذا تبقى الأمة تنتظر نتائج التجارب وصفوفها تشتتت يوما بعد يوم وطاقاتها تنهب كل يوم ومقدساتها تداس كل حين.. وترى أن بعض السذج المخدوعين بين آمالا وأحلاما على هذه الحلول، ويراهنون على نجاح التجارب ولا يحصلون إلا على ما يحصل عليه من توجه إلى ﴿**سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده** ﴾.. وهل أسفرت مفاوضات السلام في جولاتها الثمانية على شيء؟ ..

إن اعتماد الحل الإسلامي ليس تطوعا ولا نافلة بل هو واجب ديني وإسلامي وإيماني، وإقامة المجتمع الإسلامي الرباني واجب ديني وإيماني كذلك ويجب أن تتضافر الجهود من أجل إقامته وإيجاده في الواقع وذلك حتى يكون لإسلامنا وجودُه الحي الحقيقي الواقعي وحتى نمارس إسلامنا ونعيشه في حياتنا.

إن اليهود يحاربوننا حرب دينية، يحاربوننا باعتبارهم يهودا، فضّلهم الله في العالمين، ولهذا أقاموا كيانهم ومجتمعهم اليهودي الديني، وهم يحاربوننا وعددهم لا يتجاوز خمس ملايين نعم، يحاربوننا لأننا مسلمون وعددنا يفوق المليار نسمة.. سبحان الله وبالرغم من هذا الفارق الشاسع هزمونا لأنهم

يقومون على عقيدة وإن هي باطلة، وانهزمنا مرات أمامهم في جميع الميادين لأننا استبدلنا الذي هو أدنى بالذي هو خير.. فعمنا الطوفان واستمسك غريق بغريق..

فطريق انتصارنا عليهم إذن أن نكون مسلمين فعلا وحقيقة وواقعا ولن يكون هذا إلا بالإقامة المجتمع الإسلامي المنشود.. وبهذا ننال إن شاء الله رضوان الله ونصره وتأييده.. وما ذلك على الله بعزيز..